Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 02:3 (1966)

البدور البازغة

الدکتور محمد صغیر حسن معصومی

عندما ضعفت قوة ملوك المغول فی الهند فی القرن الثامن عشر الميلادی وانكسفت شموس أهل الاسلام فی هذه المنطقة- منطقة البراهمة المتعبدة للشمس و الاصنام ، ولد الشاه ولی الله فی دهلی ، عاصمة الهند، و ينتهی نسبه من جانب الأب الی الفاروق الاعظم عمر بن الخطاب رضی الله تعالی عنه ، و من جانب الام الی الامام موسی كاظم رضی الله عنه ، كانت ولادته فی يوم الاربعاء اليوم الرابع من شهر شوال المكرم سنة ١١١٤ من الهجرة و سموه باسمه التاريخی ''عظيم الدين'' و لقبوه ''بولی الله و قطب الدين'' تيمنا ببركة الاسم ، فصار بقضاء الله ولی الله و قطب الدين فی الحقيقة فيما بعد فی الهند و خارجها. ولله الحمد.

بدأ الشيخ احمد ولی الله تعليمه فی الخامس من عمره و ختم قراءة القرآن المجيد فی آخر السنة السابعة من عمره و أخذ يؤدی الصلوات المكتوبة حسب فحوی القول المأثور ''مروا أبناءكم بالصلوة لسبع سنين''- و بعد ما تعلم الفارسية و العربية أخذ العلوم والفنون فی عنفوان شبابه و حصل الفراغ من الكتب الدرسية فی العلوم و الفنون فی الخامس عشر من عمره ، و تزوج و هو ابن اربعة عشر عاما و حصل من والده اجازة الدرس و التعليم - و اشتغل فی الدرس بعد والده فی مدرسته المشهوة فی ذلك الزمان لمدة اثنتی عشر سنة.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

و كان والده الشاه عبدالرحيم من العلماء الكبار فى الهند ، و قد انتخبه السلطان عالمكير مع عديد من العلماء لجمع الفتاوى الهندية فى اول الامر ، و قد تلمذ فى العلوم العقلية على الاستاذ الشهير المنطقى المتكلم مير زاهد فتبحر الشاه ولى الله فى العلوم العقلية تحت اشراف والده العزيز.

و اما العلوم النقلية من الحديث و التفسير فانه أخذ من الشيخ أفضل السرهندى المحدث الشهير كما اخذها من والده ، لكنه ذكر فى ''الجزء اللطيف''. ''انه قرأ من الحديث فى الهند صحيح البخارى و الشمائل للترمذى و جزءا من المشكوة'' - و من الغريب أنه لا يذكر سائر الصحاح الستة و كانت شائعة فى المدارس فى ذلك العهد فقد توجهوا الى كتب الحديث واكبوا على تحصيل العلوم النقلية منذ عصر الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى على العموم ،

فلما رحل الى الحرمين الشريفين سنة ١١٤٣ من الهجرة و كان فى الثلاثين من عمره وقد أدى فريضة الحج فى تلك السنة ، و مرة اخرى فى السنة التابعة لها، فانه اقام فى الحجاز نحو عامين، و تلمذ على الشيخ ابى الطاهر المدنى و سمع منه صحيح البخارى و قرأ عليه من الكتب الصحاح الستة اطرافا و المؤطا ، و المسند للدارمى، وكتاب الاثار للامام محمد، وتناول منه اجازة بقية الكتب، و تلمذ ايضا على الشيخ تاج الدين القلعى الحنفى الذى كان مفتيا بمكة المكرمة، وكان متبحرا فى علوم الحديث و التفسير و الفقه ، فسمع منه صحيح البخارى و سائر الصحاح الستة ، و المؤطا للامام مالك و محمد بن الحسن الشيبانى و المسند للدارمى و كتاب الاثار و غيرها — و أعطاه الشيخ اجازة رواية الحديث فنمقها وكتبها بقلمه على ورقة فلم يكتف على اجازة شفهية فقط.

انه لم يكتف بتحصيل العلوم و الاجازات فقط بل لقى أصحاب

العلم من سائر أقطار الاسلام — من ايران و العراق و سورية و تركيا ، و مصر و ليبيا و الجزائر و المغرب و وقف على أحوال المسلمين فى تلك الدول ، و على وجه الخصوص الحالة البائسة التى طرأت عليهم فى الدول الاوروبية و تركيا - و كان همه أن يعرف مدى جهودهم التى بذلها زعماء المسلمين فى تلك الاقطار الاسلامية لحل مشكلاتهم العويصة.

أما فيما يتصل بحالة المسلمين فى الهند فى عصره فانه وجد نفسه مضطربا كل الاضطراب و مقلقا كل القلق ، و ذلك لأن الامبراطورية المغولية الاسلامية كانت قد فقدت سيطرتها من على كثير من مناطق الهند المترامية الاطراف - فقامت الثورات من قبل المرهتة الهنادكة - و قامت دويلات شتى فى نواحى دهلى العاصمة نفسها و ضعفت مهمتها فى كثير من ولايات الامبراطورية الكبيرة - فمنها دولة النظام فى حيدرآباد من جنوب الهند ، و دولة الشاه شجاع فى لكنؤ و دولة مرشد قلى خان فى البنغال و دولة المرهتة فى مضافات كجرات و بومباى فى جنوب غربى الهند.

و كان الشيخ ولى الله يشعر بألم شديد على تشتت شمل المسلمين فى ربوع الهند فكان ينصرف الى تفكير فى تغيير أوضاعهم الاجتماعية و الثقافية و السياسية.

فاضطر الشيخ ولى الله على ان يجتهد فى تغيير شئون اهل الاسلام و خصوصا فى الهند - و سعى لكى يرى المسلمين على صراط مستقيم مرة اخرى و يسيرون الى الأمام ، فكما انه نهض لتقديم الامة المسلمة فى السياسة ، انه بلغ جهده فى تحرير المقالات و الكتب العلمية لاقامة النهضة الثقافة للمسلمين ، و بعد تشخيص مرض المسلمين انه عرف بقوة ايمانه انهم ضعفوا واستكانوا فى الشؤن السياسية و الثقافية ، و ذلك لابتعادهم عن تعاليم الاسلام الحقة واستهانتهم بايمانهم ، فصادفوا الضعف

فى سائر احوالهم الدينية و السياسية ، و ذلك لانهم تأثروا كثيرا من المصاحبة و التعايش مع الوثنيين فى الهند و المسيحيين و اليهود فى اوروبا ، و دول الغرب - فتركوا ديادنهم الاسلامية، و العادات الحسنة، و اخذوا بطريق التصوف ، و تعلم الالسنة المتفرقة و الكتب الثقافية للاقوام المختلفة فى مواطنهم فضلوا و اضلوا ، و لم يعرفوا انهم على سنن غير السنن النبوية على صاحبها افضل الصلوة و التحية .

فمن مجهودات الشاه ولى الله تعليم القرآن الحكيم بالفارسية ليبين لمعاصريهم معانى كتاب الله تعالى و احكامه، فكتب ترجمته الفارسية مع شرح بعض المسائل تحت عنوان فتح الرحمن ، لفتح المشاكل و حل العويصات الدينية و السياسية و الثقافية ، ثم شرح كتاب الموطأ للامام مالك رض فاوضح الاقوال و الافعال النبوية و اعمال الصحابة رض و التابعين اولا باللغة الفارسية و سماها المصفى - و لخص تعاليم الدين المأثورة المروية فى الموطأ باللغة العربية و سماها المسوى .

ثم أوضح رموز الشرائع و احكام الدين و اسرار الملل و خصوصا معانى الملة الاسلامية فى كتابه القيم حجة الله البالغة على مقتضى العقل والنقل ، وكتابه هذا مقبول فى الاقطار الاسلامية ، و قد طبع مرارا فى القاهرة ، و فسر أسرار الدين على طريقة التصوف فى التفهيمات الالهية ، كما انه صرح بعض المسائل المتعلقة بالخلق ، و الدنيا و ما فيها و اليوم الاخر و النبوة و البرزخ فى البدور البازغة على الطريقة العلمية مع بيان الاصطلاحات الصوفية فى مؤلفه الخير الكثير ، و الرسائل الأخرى .

و تصانيفه كلها ممتعة مرتبة باحسن ترتيب، و منمقة ببيان واضح - و ان من البيان لسحرا ، و ان كتابه ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء بالفارسية يشرح الخلافة و الامامة فى القسم الاول ، و القسم الثانى من

الكتاب يشرح تاريخ الخلفاء الراشدين الاربعة، مع بيان النواحى السياسية الهامة و الاقضية و الاعمال البارزة ، فهذا الكتاب يفصح عن تاريخ زهاء خمسين سنة من العصر الاول للاسلام بعد النبى صلى الله عليه و سلم مستضيئا بالقرآن الحكيم و الحديث النبوى و آثار الصحابة رض حيث يزيح الحجب و الاستار عن وجوه الحوادث و الفتن التى اثيرت فى ذلك العهد ، و ما زالت تحدث لتقوية بعض الفرق الطاعنة و التى جاوزت عن الحدود الدينية. فهذا الكتاب هو أحرى ان يترجم باللغة العربية لتعميم الفائدة فى الاوطان العربية التى لا تهتم باللغة الفارسية ، و لأن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة التى تربط ابناء الاسلام فى اقطار العالم باسرها ،

وان الشاه ولى الله لم يقنع بالتحرير و التقرير و الخطب و انه نجح بتنظيم تلاميذه و الذين مالوا الى تفكيره الدينى للتبليغ و النشر فى ما بين المسلمين و لبعث الامة الاسلامية لا فى حياته فقط و لكن تفكر فى استمرار هذه النهضة بعده ، فنحن نرى ''الحزب الولى اللهى'' ونجد أن اعضاءه لم يالوا جهدا فى ابلاغ تعلياته و افكاره فى اقطاع الهند ، حتى انهم نهضوا للجهاد لتحرير المسلمين من مظالم رنجيت سنكه والى البنجاب و الاقليم الغربى من هذه المنطقة ، الى بشاور و جبال القبائل الحرة تحت قيادة الشهيد السيد احمد البريلوى ، و الشهيد الشيخ اسماعيل حفيد الشاه ولى الله.

غير أن الاستعماريين - الانجليز - استطاعوا أن يخمدوا نار ثورتهم بضرب الزعماء و أتباعهم ضربا شديدا ، و مما لاشك فيه أن تاريخ هذا الجهاد ضد الاستعمار لمشرف و مشرق لجميع أجيال المسلمين فى هذه الربوع من شبه القارة — فقد أناروا سبيل الكفاح من أجل الحرية و الكرامة لمسلمى الهند ، و القصة جد طويل ، و لا حاجة بنا الى سردها فى هذا المقال.

فاعضاء هذه النهضة مالوا الى تعميم العلوم الدينية و نشرها فانشئوا لمدارس العديدة فى دهلى، و ديوبند، و لكناؤ، و رامبور مع وجود المدارس القديمة فى النواحى المختلفة ، و درسوا فيها كتب الحديث علـى الخصوص و العلوم النقلية و العقلية و شيئا من العلوم الحديثة .

و قد اعترف علماء مصر و الدول الاسلامية بمجهودات الشاه ولى الله ، و رحبوا بمؤلفاته فى اقطار الناطقين بالضاد ، ولكن بعض العلماء لم يتفقوا مع بعض من افكاره فالعلامة المحدث الكبير الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، وكيل المشيخة الاسلامية فى الخلافة العثمانية سابقا ، خالف بعض افكاره القيمة .

و قد تناول الشيخ التركى بعض آراء الشاه ولى الله رحمه الله بنقد نراه فى غير محله ، لأن مقتضيات الحق و التحقيق تدلنا على أن الشاه ولى الله قد أراد من وراء آرائه اصلاح حالة المسلمين فى جميع أنحاء العالم و ليس فى الهند فحسب ، فكان يهدف الى ارشادهم فى ضوء التعاليم الاسلامية الحقة كما يدعو اليه القرآن الكريم و الحديث النبوى الشريف بالنظر الى ما كانت تقتضيه الاوضاع القائمة فى عصره —

و يجدر بنا أن ننقل رأى الشيخ الكوثرى فيما يلى :

"و لا بأس ان أتحدث فى الختام ، عن الحبر الهمام الشيخ احمد بن عبدالرحيم الدهلوى رحمه الله ، لكثرة تعرضه لمباحث الاجتهاد و تاريخ الفقه و الحديث فى كتبه باندفاع و جرأة ، على كدورة فى تفكيره ، و تحكم فى تصويره مع ضيق دائرة اطلاعه على كتب المتقدمين ، و قلة دراسته لاحوال الرجال و تاريخ العلوم و المذاهب مسترسلا فى خيال أدى به الى الشطط فى كثير من بحوثه و تقريراته —

"و كتبه لها روعة و فيها فوائد بيد أن له فيها انفرادات

لا تصح متابعته فيها لما عنده من اضطراب فكرى ينأى به عن الاصابة فى تحقيق الموضوع ، و يشطح به التابع و المتبوع . و فى كثير من الاحوال تجد عنده عبارات مرصوصة لامحصل لها عند أهل التحصيل ، فأشير هنا الى منشأ هذا الاضطراب الفكرى عنده ليكون من لم يدرس حياته على بينة من أمره ، و أما التوسع فى بيان ما فى انفراداته من الشطط فيحتاج الى تفرغ خاص .

''و له رحمه الله خدمة مشكورة فى انهاض علم الحديث فى الهند ، لكن هذا لا يبيح لنا السكوت عما ينطوى عليه من أعمال تجافى الصواب فأقول : كان رحمه الله نشأ على مذهب الحنفية فى الفروع و المعتقد ، و على مذاق العارف الشيخ احمد بن عبدالاحد السرهندى المعروف بالامام الربانى فى القول بالتوحيد الشهودى ، و ألم بالحديث و الفلسفة على عادة أهل بلده ، ثم رحل الى الحجاز فتلقى الاصول الستة من الشيخ ابى طاهر بن ابراهيم الكورانى الشافعى بالمدينة المنورة و لازمه ، و عكف على كتب والده التى تحاول الجمع بين الاراء المتراكلة للحشوية و الاتحادية و الفلاسفة و المتكلمين ، فمال الى مذهبه فى الفقه و التصوف ، فعاد الى الهند منحرفا عن مشرب اهل بيته و مذهب اسرته ، فى التصوف و الفقه و الاعتقاد مرتئيا التوحيد الوجودى ، و لسان حاله يقول :

عقد الخلائق فى الاله عقائد و انا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

''فافترقت الكلمة هناك باندفاعه فى دعوته الى آرائه فى المذهب الفقهى و محاولته الجمع بين آراء الحشوية و الفلاسفة و القائلين بوحدة الوجود و اذاعته القول بالتجلى فى الصور(منه : راجع ''الجنائز'' من حجة الله البالغة) و الظهور فى المظاهر ، ظنا منه أن ذلك من عقيدة الأكابر ، مع ان هذا و ذاك من باب القول بالحلول ، فيكون منبوذا

عند الفحول من ارباب العقول ، و كم لهذا القول السقيم ، من نظائر فى العهد القديم ،

''و عبقات حفيده مما زاد فى الطين بلة ، و فرق كلمة الملة الى لامذهبية و حشوية و حنفية متنافرة متنابذة فى الاصول و الفروع حتى دار الزمن فاخذت اللامذهبية تنمو و تترعرع فى تلك البلاد ، و ان رجع الجد فيها بعد الى المذهب بمبشرة يذكرها فى ''فيوض الحرمين'' و التفهيمات الالهية (راجع مقدمة فيض البارى (٢٤)

''و كان الجد جيد الاهتمام بمتون أحاديث الاصول الستة لكنه كان يكتفى بها من غير نظر فى اسانيدها ، و الواقع ان الاكتفاء بمتونها يقصر المسافة الى حد الاقتصار على مجلد واحد فى الحديث ، لكن اهل العلم فى حاجة ماسة الى النظر فى الاسانيد حتى فى الصحيحين فضلا عن السنن فى باب الاحتجاج بها على الفروع كما هو طريقة اهل العلم فكيف يستباح ترك النظر فى الاسانيد فى باب الاعتقاد ؟ و اكتفاء بمتون السنة من غير نظر الى الاسانيد جرأه على التحكم فى مذاهب الفقهاء و مسانيد الائمة بما هو خيال بحت يذوب امام التاريخ و تحقيق اهل الشأن ،

''و من اغراباته عده انشقاق القمر عبارة عن ترائيه هكذا للأنظار ، و ليس سحر الاعين من شأن رسل الله صلوات الله و سلامه عليهم اجمين ،

''و منها حمله لمشكلات الآثار على وجوه مبنية على تخيل عالم يسميه عالم المثال تتجسد فيه المعانى فى زعم بعض المتصوفة اخذا عن المثل الافلاطونية ، و هذا العالم خيال لم يثبت وجوده فى الشرع ولا فى العقل ، فتكون احالة حل المشكلات على هذا العالم احالة على خيال ، بل نفيا لمعانى الآثار بسبب القائها فى مجاهل عالم المثال ، مع كون حمل الشئ على ما لا يفهمه أهل التخاطب فى الصدر الأول محض خيال و ضلال ،

فلا يبقى مجال لحل المشكلات غير النظر فى الاسانيد و رجالها و فى وجوه الدلالة المعتبرة عند الائمة البررة ، و منها جعله المتقدم القريب من النبع الصافى كدر الروايات ، و المتأخر المستقى من موارد كدرة صافى المرويات ، و عدم تميزه بين رصافة التاصيل المؤدية الى قلة مخالفة المتأخر من اهل المذهب مهما علت منزلته فى العلم رواية و دراية ، و بين كثرة الاضطراب فى التأصيل المستلزمة لكثرة مخالفة المتأخر الخاضع للمذهب و ان كان قصير الباع ، غير واسع الاطلاع ،

"و منها تحكمه فى اصول المذهب و تقوله انها صنع يد المتأخرين ، و ذكره الزيادة على النص بخبر الاحاد فى هذا الصنف مع ذكره مناظرة الشافعى محمدا فى ذلك مناقضا نفسه و ناقضا لما ابرمه قبل لحظة ، و هذا من الدليل على مبلغ وعيه و على ضيق دائرة اطلاعه و عدم خبرته بكتب المتقدمين المبثوث فيها كثير من اصول المذهب بالنقل عن ائمتنا القدماء ، فأين هو من الاطلاع على كتاب الحجج الكبير او الصغير لعيسى بن أبان؟ و فصول ابى بكر الرازى فى الاصول ، و شامل الإتقانى؟ و شروح كتب ظاهر الرواية؟ التى فيها كثير جدا مما يتعلق بأصول المذهب المنقولة عن أئمتنا ، فلا يصح ان يعول على مثله فى هذا الموضوع ،

"و منها اختياره لقدم العالم كما حكاه المحقق الكشميرى عن بعض رسائله فى بدء الخلق من فيض البارى ، و هذا داهية الدواهى ، و الاغرب من هذا استدلاله على ذلك بحديث ابى رزين فى العماء عند الترمذى ، رافضا تاويل الراوى مع ان فى مسنده حماد بن سلمة و وكيع بن حدس ، فحماد مختلط دس فى كتبه ربيباه ما شاءا من الاباطيل فى التشبيه ، و تحاماه البخارى مطلقا و مسلم فى غير روايته عن ثابت ، و شيخه يعلى بن عطاء ليس بذاك القوى ، و وكيع بن حدس او عدس على الاختلاف مجهول الصفة ، فبمثله لا يحتج فى حيض النساء ، فأنى لمثل

هذا الخبر ان يكون حجة ؟ فى اثبات المكان له تعالى او اثبات قدم العالم المنافى لكتب الله المنزلة ، و من تكون بضاعته هكذا فى الحديث كيف يتحاكم اليه فى ادلة الاحكام ؟ على انه جنح فيما بعد عن الجموح و عاد الى الجادة بالآخرة ، فى مبشرة رآها فى المدينة المنورة حيث قال فى فيوض الحرمين (٤٨) : عرفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى المذهب الحنفى طريقة انيقة هى اوفق الطرق بالنسبة . . . ، فخاب امل من يسعى فى هدم المذهب بمعاوله فى ''الانصاف ، و عقد الجيد،، ''و حجة الله البالغة '' و غيرها ، و هذه الاشارة العابرة كافية هنا فى التنبيه الى شطحاته ، و لعل الله سبحانه يوفقنا لغربلة الاراء فى هذا البحث المتشعب فى فرصة اخرى ، و ما ذلك على الله بعزيز ،،

انما نقلت عبارة الشيخ الكوثرى برمتها لاظهار الحق و الحقيقة حتى لا يبقى مجال لا حد من المحققين للطعن فى صواب رأى الشاه و المهم أن الشيخ نفسه قد اعترف بفضل الشاه ولى الله فى العلوم و المؤلفات و لكنه انكر ''الكدورة فى تفكيره'' و شكا من ''قلة دراسته لاحوال الرجال و تاريخ العلوم والمذاهب'' ثم اشار الى بعض أقواله التى أخذها من بعض مؤلفات الشاه و أراد ردها ، و سأوضح تلك المسائل حتى ينجلى الحق و يزول الشك و الارتياب ،

و لا ريب ان الشيخ الكوثرى لتعصبه للمسلك الحنفى فى الفقه لم يتمالك على نفسه فأخذ على الشاه ولى الله و حفيده كما يظهر من قوله و صرف يراعه للدفاع عن زلته و لم يخطر على قلبه انه رد كل ما استهدف الشاه به حين قال : ''على انه جنح فيما بعد عن الجموح و عاد الى الجادة بالآخرة فى مبشرة رأها فى المدينة المنورة الخ''.

انه يترشح من مؤلفات الشاه انه تأثر الى حد كبير بالفلسفة و التصوف ، و لكن رحلته الى الحجاز أثر فى نفسه أشد تاثير ، فغلب

عليه علم الحديث، و تبادل الرأى مع العلماء الكبار من المعاصرين، و استقى من بحور علومهم و استفاد من تجاربه فى العرب و تناقله من موضع الى موضع فتوسع فى ما حصله و اكب على السنة السنية السائدة فى العصر الاول من الاسلام ، و لكنه عند ما اضطرب فى اعتقاده فى الفقه و الاعمال المرضية عند الاسلام ، توجه الى تحرير نفسه من التقليد الجامد لمسلك فقهى فقط ، ثم لما تناظر مع العلماء من المذاهب الاربعة عاد الى الجادة و اعترف بفضل الطريقة الحنفية ففيها وجد انه يمكن له ان يجمع سائر المذاهب التى جاء ذكرها فى الحديث باتباع الاقوال المختلفة و الآراء المتنوعة عند أصحاب المذهب الحنفى ،

و يظهر من مؤلفات الشاه انه استعمل لتوضيح العقائد الدينية و الرموز الاخروية حسب المصطلحات الفلسفية دون ان يبالى بما يعتقد كبار الفلاسفة ، فبين حقيقة الوجود بالفاظه الخاصة المستعملة عند الفلاسفة و اعلن سائر الموجودات مظاهر الصفات ''لاسم الله الرحمن'' و عبر سائر ما يذكر فى القرآن الكريم من احوال القيامة و الآخرة و البرزخ بالفاظ واضحة عند الناطقين بالضاد و مقبولة عند الفلاسفة حتى لا يبقى للشك مجال ، و لا للاضطراب الفكرى مآل ، و لا غرو انه أماط اللثام عن وجوه الافهام و بين سائر المسائل المتعلقة بالخالق ، و الخلائق، و الدنيا، و الآخرة بعبارة واضحة -

فقد أخذ على نفسه ألا يقبل أى رأى أو قول مهما كان مصدره اذا خالف التعاليم الاسلامية الحقة و ناهض حكم الدين الحنيف ، و قد كان رحمه الله يتخذ من القرآن الكريم و الحديث النبوى الشريف قدوة و ديدنة لكل ما أنف و كتب من الكتب و الرسائل ،

و عجيب من الشيخ الكوثرى انه يذكر من سائر شيوخه فى الحجاز الشيخ ابا طاهر الكردى الشافعى فقط ، و لم يذكر ان الشاه

ايضا صحب الشيخ تاج الدين المكى الحنفى بمكة المعظمة بعد عودته من المدينة المنورة ، و الشاه هو معروف بتشبثه بالدين و الاعتصام بحبل الله المتين ، و لا يعنى الحشوية و الفرق الضالة ، و بقى على طريقة والده الشيخ عبدالرحيم ، و اكب على علم الحديث و لازمه على الخصوص و لم يغفل عن احوال الرواة و الرجال ، فكتابه ''ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء'' دليل واضح على سعة اطلاعه على المسائل الطارئة فى عصر الصحابة و الخلفاء الاربعة رض ـ فانه اوضحها بغاية التحقيق و التدقيق ، و يشهد على غزارة علمه فى علمى الحديث و الرجال ، و نقد المتن و الجرح و التعديل المتعلق بالرواة ، و لا غرو ان رسائله المختصرة ، ''الانصاف فى سبب الاختلاف'' ''و عقد الجيد فى الاجتهاد و التقليد'' تحسن فى تفسير المسائل المتعلقة حسب أى القرآن الحكيم و السنة النبوية ، و ترشد الى الجادة المستقيمة من غير اظهار تعصب فقهى ، و جموح دينى لمسلك من مسالك الائمة المجتهدين الراشدين المهديين ـ فجميعهم اهل السنة و الجماعة ، و كلهم على الصراط المستقيم ،

اما التوحيد الشهودى فلم ينكره الشاه ولى الله ، و انما اراد التوفيق بين النظريتين — نظرية التوحيد الوجودى كما اوضحه الشيخ ابن العربى ، فصفات الوجود قد ظهرت فى سائر الاشياء الموجودة فى العالم ، و نظرية التوحيد الشهودى على ما وصفه الشيخ احمد السرهندى ، فلفظ ''المشهود'' ينبئ عن ظهور الموجود و فيضان صفات الاسماء الالهية على الاشياء التى قد وجدت او ستوجد فى العالم ، و نظرية التوحيد لا ترشد الى هذه العقيدة الفاسدة ان العالم واحد مع الله تعالى ، حاشا و كلا ، و قد صرح الشاه هذا التوفيق على طريقة التصوف فى المكتوب المدنى المطبوع ـ

و هكذا الانتقاد على قلة دراسته لاحوال الرجال شئ عجيب من الشيخ الكوثرى ، لعله يغفل عن هذه الحقيقة ان نقدنا على رجال

القرون الاولى موقوف على بيان كل ماجاء به علماء تلك القرون ، فكل ما نقول فى شان رجل من رواة الحديث لا يكاد يجاوز دراية المحدثين و الناقدين على الرجال ، و الآن ليس لنا بد من اختيار احد من الاقوال المروية ـ على انه لازم علينا ان لا نرجح قولا على قول من غير دليل ، و كثيرا ما نجد انهم ينقدون على راو بعدم الثقة و غير هم يعدون ذلك الراوى نفسه ثقة عدلا لغرض معلوم احيانا و غير معلوم احيانا، ففى كثير من الرواة الذين عاصروا جامعى كتب الحديث لايمكن ان نحكم بشئ الا بدليل واضح و قليلا ما يوجد ، و اكثر عويلنا فى هذا الباب على اصحاب الصحاح الستة و الامام احمد و الحاكم و غيرهم من قدوة المحدثين و اجلة المؤرخين و الناقدين على رواة الحديث ، و الشيخ الكوثرى نفسه اثبت فى ''الحاوى فى سيرة الامام ابى جعفر الطحاوى'' (ص ٢٧، مطبعة الانوار بالقاهرة ١٣٦٨ ﻫ) :

''و هو (اى الحافظ ابن حجر العسقلانى) كما يقول أبر اصحابه له الحافظ السخاوى فى تعليقاته على الدررالكامنة لا يستطيع ان يترجم لحنفى الا باخسا لحقه ، و منتقصا لشأنه ، و فى هو امشس الدرر كثير من كلام السخاوى فى ذلك ، فبهذا يتبين صواب ما قاله المحب بن الشحنة فى ابن حجر انه لا يعول على كلامه فى حنفى متقدم و لامتأخر لبالغ تعصبه'' ،

و العلامة ابن حجر شانه معروف و منزلته مشهورة عند اهل العلم ، فان كان تعصب فى شان الطحاوى فما يترجى منه فى شان غيره ؟

و اما عالم المثال ، فالشاه ولى الله متفرد فى وضع هذا الاصطلاح ـ و حاشا ان ياخذه عن المثل الافلاطونية ! كيف؟ و هى تختلف عما يذكره الشاه ، فعند الافلاطون مثلا هذا العالم الحقيقى فى الوجود مثال للعالم الالهى الموجود خارج هذا العالم ، فعنده هذا العالم الحقيقى

غير ثابت و غير موجود حقيقة ، و هكذا عند سائر المشاهدات غير حقيقية ، و هذا الفكر عجيب ، و الشاه ولى الله انما أراد ان يفسر مثلا ، وجود الجنة و النار، و سائر التفاصيل الموجودة فى الآثار النبوية ، و التى اشار اليها القرآن الحكيم فى آياته البينة ، بوضع عالم المثال الذى يتبين عند المدرك العقل ، و يريد ان يثبت مشاهدة صفات الموجودات فى البرزخ كما انها تشاهد كأنها حقيقية فى المنام ، و قد صرح الشاه هذا المطلب فى حجة البالغة ـ فقال (ص ١٠ ، الخيرية ، ١٣٢٢ هـ) : ''اعلم انه دلت احاديث كثيرة على ان فى الوجود عالما غير عنصرى يتمثل فيه المعانى باجسام مناسبة لها فى الصفة ـ و يتحقق هنالك الاشياء قبل وجودها فى الارض نحوا من التحقق ، فاذا وجدت كانت هى بمعنى من معانى هو هو ، و ان كثيرا من الاشياء مما لاجسم لها عند العامة تنتقل و تنزل و لا يراها جميع الناس''ـ ثم ذكر احاديث كثيرة ترشد الى ما اوضحه الشاه ، كما انه صلى الله عليه و سلم قال : تجىء الاعمال يوم القيامة ـ فتجىء الصلاة ثم تجىء الصدقة ، ثم يجىء الصيام ـ الحديث ، و قال : ''ان المعروف و المنكر لخليقتان تنصبان للناس يوم القيامة ، فاما المعروف فيبشر اهله ، و اما المنكر فيقول اليكم اليكم ، و لا يستطيون له الا لزوما'' ، و قال ''هل ترون ما ارى؟ فانى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع المطر'' ، و حديث الاسراء مشهور ـ فالشاه ولى الله انما اخذ هذا عن الآثار النبوية نفسها ، و اثبت عالم المثال حسب معانى القرآن الحكيم و الاقوال الماثورة لرسول الله الكريم ،

و ما قال الشيخ الكوثرى فى شأن الكتب القديمة التى هى طبعت فى هذا الزمان و التى ما كانت متداولة فى عصر الشاه ولى الله فهذا صحيح ـ و لكنه لا يثبت ان الشاه لم يفهم تعاليم الدين لفقدان هذه الكتب ، فان الكتب قد صنفت بعد عصر التابعين و عصر الصحابة

و عصر النبى صلى الله عليه و سلم - فهل يريد الشيخ ان الدين لم يكن تاما قبل تصنيف هذه الكتب؟ و هل يرشد هذا ان المسلمين قبل وجود مذاهب الائمة المجتهدين انما لم يسلكوا على المحجة البيضاء؟ عياذا بالله تعالى - على ان كتب المتأخرين مبنية على كتب المتقدمين - فما فقد المسلمون شيئا من التعليمات الضرورية فى الدين لعدم وجود كتب الامام محمد الشيبانى و غيره من الائمة المتقدمين ، ثم ان الشاه ولى الله له خبرة تامة و اطلاع واسع بمذاهب الصحابة و التابعين و الائمة المجتهدين - و انه مارس اقوالهم بدقة انيقة و بصيرة نادرة ، فما بينه من اسباب الاختلاف الفقهى مبنى على اقوال المتقدمين ، و باب اسباب اختلاف مذاهب الفقهاء فى حجة الله البالغة باب طريف ، و اما انكار الشيخ لذكر المناظرة التى دارت بين الامام محمد و بين الامام الشافعى لا يدل على عدم العلم بالمسائل ، و هذا فى المسئلة انهم لا يميزون بين الزيادة التى تخالف الحكم الصريح الذى يرشد اليه القرآن الحكيم و بين ما يخصص ويبين حكم الكتاب ، فالقضاء بالشاهد مع اليمين يخالف فحوى ''و استشهدوا شهيدين من رجالكم . . .'' و هو طلب الشاهدين لابد منه فى القضايا ، و هو حكم صريح ، و القضاء بيمين و شاهد ، و ان كان ثابتا بالسنة المفهومة من خبر الواحد الذى لم يات به غير واحد فى الصدر الاول و لم يعمل به فى ذلك الزمان ، فانه يخالف ما ترشد اليه الآية الكريمة ، و اما حجتهم انهم يقبلون ''لا وصية لوارث'' مع قول الله تعالى، ''كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت'' ، الاية، فانها ليست بشئ ، فالاية الكريمة ترشد الى فرضية الوصية للاقربين ، يرثون او لا يرثون ، فهذا الحديث يخصص الاقربين و يبين انها لا وصية للوارث و لا يخالف مفهوم الآية ، فالحنفية عملوا باخبار الآحاد فى تخصيص الكتاب و لم يعملوا باخبار الآحاد التى تنسخ حكم الكتاب ، و هذا لا يصح انهم لا يعملون باخبار الآحاد على الاطلاق ،

و كتابه البدور البازغة نفسه يشهد على براعته فى العلوم العقلية و النقلية فمضامينه تدل على قدرته على ذكر اقسام المخلوقات و العلاقات التى هى بين الموجودات على وفق العقل البشرى و حسب ما تعتقده المذاهب الموجودة فى العالم ، و ما بين ما بعد الطبيعة و الطبيعيات ، و عالم البرزخ و الآخرة فيفصل ما يوصل بين الحكمة و الشريعة ، و يبين ما يريد فى الاصطلاحات الفلسفية و الاصطلاحات الشرعية فمفكروا الاسلام بعد القرن الخامس انما تأثروا على حد كثير بالفاظ ابتدعوها فلاسفة اليونان و اطباؤها و لا غرو ان اهل التصوف ايضا مالوا الى الفكر الافلاطونى لشوقهم المفرط فى بيان العلاقة بين الناسوت و الجبروت او بين العالم الجسمانى و العالم العلوى الا للهى ، أما طريقة الشاه ولى الله للبحث عن هذه المسئلة هى مبتكرة فى البيان و توضيح الفكر الاسلامى كما سيتضح لمن يطالع النص .

البدور البازغة

هذا الكتاب مشتمل على فاتحة و ثلاث مقالات ، الفاتحة تبحث عن بعض المسائل من الحكمة—الوجود و وحدانيته تعالى و كونه المبدأ الاول، البحث كما يظهر فلسفى يوافق اصطلاحات الفلسفة ولكن الشاه ولى الله تفرد بالبيان عند ما يعد الكائنات مظهر صفات البارى تعالى، و يستفيض سائر القوى و الموجودات من اسم ''الرحمن'' ، و عند ما ذكر وجود الانسان وهوالمقصود من البحث شرع مقالته الاولى التى تبحث عن احكام امام الانسان، و انما وصف الانسان بالامام حسب فحوى الآية الكريمة : ''و اذ قال ربك للملئكة انى جاعل فى الارض خليفة'' ، و بعد ما يبين خصائص الاسلام يسمى النفس الناطقة نسمة ، ويذكر حقيقتها ، و يبحث عن الاخلاق و يستقرأ الاخلاق الفاضلة السبعة و يفصلها ، و له طريقة خاصة فى بيانها فتفصيلاته تختلف كثيرا عن فلاسفة علم الاخلاق الذين

هم افصحوا عن مطالبه.

و ان الشاه ولی الله وحید فی بیان ''الارتفاقات الاربعة'' التی تختص بالانسان فی حیاته الدنیویة ، و انه اجاد فی الفحص عن الحوائج الضروریة العامة للانسان و البهائم و الحاجات المختصة بالانسان فی الاقتصاد و المعاشرة و نظام المنزل و المدن و السیاسة ، و قد اختار الفاظا عدیدة لتوضیح مطالبه و تفسیر مقاصده و لم یذکر هذه البحوث احد من حکماء الاسلام قبله بهذه الالفاظ و بهذا النمط ، و ان ذکر حجة الاسلام الامام الغزالی هذه البحوث فی کتابه ''احیاء علوم الدین'' و لکن مضامینه تختلف عن ما تحتویه کتب الشاه اختلافا کثیرا ، و هذا ظاهر لمن طالع کتب الامامین الهمامین .

و لا ریب ان الشاه ولی الله قد استفاد من الکتب الفلسفیة و المصنفات الکلامیة الدینیة و اتی ببیانه المجید العجیب ـ فلبیانه ان الامام یکون جامعا للاخلاق السبعة من الحکمة و العفة و السماحة و الشجاعة و الفصاحة و الدیانة و السمت الصالح ، مشابهة مع تصریح المعلم الثانی الفارابی ان الامام یکون جامعا للاخلاق الفاضلة .

و بعد ما یفصل صفات القاضی و یشرح وجوه فساد اهل المدینة یذکر سیرة الامام و خصائص الاعوان و آداب الخلافة العظمی و اقامة خلیفة الخلفاء ، و ایضا یحقق الجبلة الانسانیة و حقیقة الرسوم و مذاهب الناس فی الرسوم ، و اشار الی معرفة امزجة الانسان لتفویض المناصب حسب الاستعدادات ـ فهذه المقالة تشرح عما یحتاج الیه الانسان من الحکم و المصالح و الحوائج الضروریة الذاتیة و القومیة و السیاسیة شرحا وافیا لا یوجد بهذا التصریح و التوضیح فی الکتب الاخری.

و المقالة الثانیة تبحث عن وجوه اهتداء بنی آدم للقرب الی الحق و البعد عن الباطل ، و یصرح ان معرفة الله تعالی مودعة فی طبیعة

الانسان و بهذه يتميز الانسان عن البهائم ، ثم يذكر اسماء الله سبحانه و صفات الله تعالى بنمط موجز بديع ، و يفسر الايمان بالقدرة و حقيقة الاحسان و الحجب الثلاثة و تولد العبادات من الاحسان تفصيلا ، و العجب انه يذكر انه لا يزال فى الدين المحمدى وصّى يحمل العلم و الوحى على وجهها — عقيدة توصل مابين اهل السنة و الجماعة و بين اهل التشيع .

ثم يوصف كيفية الفتن و يبحث عن اثبات القيمة و كيفية صدور الشر من الخير المحض و اقسام الشر ، و يبين ظهور لمة الشياطين فى صور شتى و طرق معالجاتها ، و اجماع الملل كلها على ان الدعاء يستجاب ، وانه بعد الموت ثلاث منازل ، ثم يبحث عن عالم القبر ، و حال العبد بعد الموت ، و اسباب التعذيب و التنعيم فى القبر ، و يوصف عالم الحشر و الجنة و النار ، و يذكر مراتب النفوس و يفصل مباحث النفوس و اصحاب اليمين و اصنافهم ، و اصحاب الاعراف و اصنافهم ، و المنافقين و اصنافهم ، و احوال علم فضائل الاعمال و علم المناقب ، ثم يبحث عن اثبات النبوة ، و استخراج اقسام الانبياء و مراتب الوحى ، و يشرح اوصاف 'الكامل' ، و 'الحكيم' ، و 'الخليفة' ، و 'الهادى' ، و 'الامام' و 'المنذر' ، و 'الشهيد' ، و ان الانبياء يتصفون بالاوصاف المذكورة حسب خصائصهم و مراتبهم فبعضهم يتصفون ببعضها بالاكثر و بعضهم بالكل ، ثم يحقق الشريعة و الاحكام و الآثار التى يمتازبها النبى عن سائر الناس ، و يبين اصناف الملائكة و حقيقة الشياطين.

اما المقالة الثالثة فهى تشرح الملل و الشرائع حقيقتها و مميزاتها ، و بعد بيان الملة القصوى و ظهورها يشرح الملة التى يجب اتباعها ، و يذكر بعثة سيدنا نوح عليه السلام ، و اصناف بنى آدم و قوم عاد و

قوم ثمود ، يوصف ملة النجاميين ، ملة المجوس و ملة الطبيعيين، و اقواما اخرى ، و يذكر بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم على وطيرة الارتفاق الرابع ، فيبين اصول الملة الحنيفية ، و رضاء الله تعالى و انه منحصر فى هذا الزمان فى الملة الحنيفية ، ثم يحقق علم التشريع و قوانينه و يذكر انه لا بد لصاحب الشرع من مقامات ثلاث ـ (١) المقدمات التى يقهر بها الطبيعة ، (٢) اختلاف المسالك فى تعيين المقدمات ، (٣) حجاب الرسم و حجاب سوء المعرفة ،

ثم يبين مقاصد شرع رسول الله صلى عليه و سلم ، غلبة الدين الحنيفى ، ابطال الملل الباطلة و اعدامها ، ايجاب التمذهب بالمذهب الحنيفى ، و كون الاقرار الجلى برسالته صلى الله و سلم ، و شرح قوله عليه السلام " بعثت بالملة السمحة الحنيفية و البيضاء، و يشرح الاركان الاربعة ، و حرمة البلد الحرام و الشهر الحرام ، و سقوط حرمة الحربى ، و تمزيج العادات بانواع العبادات ، و يذكر الاخلاق الصالحة ، و تحريم الرباء ، و نكاح الشغار، و نكاح المتعة ، و تحريم لحم الخنزير و السباع و غيرها .

و معظم هذه المسائل لم تبحث عنها فى اكثر كتب المتكلمين و حكماء الملة ، و قد حققها بنمط بديع ممتع ـ فيستفيد من هذا النص الواضح كل من يناسب طبعه مع العلوم التى يبحث عنها الشاه ولى الله رحمه الله تعالى.